

القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط (١)

بقلم : ب. ه. دوب P. H. Dopp

الاستاذ المساعد في كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول

(جامعة القاهرة حاليا)

اختارها وترجمها : عبد الرحمن حميدة

عن مجلة الجمعية الملكية الجغرافية المصرية: ٢٥ (١٩٥٢)

على قدر ما تكون النصوص نادرة ، يكون الامل في العثور على فائدة من أوائل النصوص التي تصف القاهرة ، التي تركها لنا الرحالة والحجاج من العصر الوسيط . غير أن خيبة الامل سرعان ما تقفز للعيان : ذلك ان طلائع زوار القاهرة لم يجيدوا الكلام عنها ، ولم يعرفوا الرؤية الحسنة ولا الوحدة . فقد اكتفوا ، من خلال قلم أرعن ، او ساذج ، بأن دونوا انطباعاتهم عن اتساع المدينة ، وعن عدد سكانها الذين لا يحيط بهم احصاء ، وعن غنى تجارتها ، وعن بهجة البساتين التي تحيط بها . أما فيما يتعلق بترتيب الامكنة حسب مواقعها ، وعن مشهد الاوابد ، فلا شيء الا النزر اليسير . وفضلا عن ذلك قدموا نبذة عن نهر النيل « القادم من الجنة الارضية » ، وعن السور الذي يطوق المدينة ، وعن القلعة ، و« قصر السلطان » . هذا كما ان الحجاج لم يتوانوا عن تعداد كنائس بابلون ، أي القاهرة القديمة (٢) ، التي زارها . غير أن وصفهم يقتصر على التنويه بجمال كنائسها وجلالها ، وانها تحتفظ بجسد ذلك القديس أو ذاك . وفي خلال كل القرن الثالث عشر لم يصف شيء يذكر الى تلك الملاحظات التي نراها متكررة من رواية لآخرى . وعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر كي نعثر على تفاصيل مرئية حقا وأوصاف ذات فائدة حقيقية .

ومنذ القرن ١١ ، أشار الشعراء الجواله الى القاهرة باسم بابلون Babilone اقتداء بالاغريق ، مع التباس ظاهر مع « بابلون » Babylonه الاشورية (كذا) . وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوروبا ، ونصادفها حتى في المعاهدات التجارية المدبجة باللغة اللاتينية . وعلى كل فان المؤلفين الاكثر اطلاعا ، والذين جاؤا من بعد غليوم الصوري (٣) ، انتبهوا الى ضرورة التمييز بين بابلون التوراتية وبين عاصمة مصر ، التي ميزوا فيها بين مدينتين هما بابلون ، التي هي الجزء الذي يحمل اليوم اسم مصر العتيقة (٤) وبين القاهرة الحقيقية (مصر القاهرة) التي اسسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي .

دراسات تاريخية ، المجلد ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤

ومن المعروف أن مدينة بابلون القديمة نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دعي « قصر الشام » وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن ، وهكذا توسع المعسكر بعد قليل تحت اسم مصر أو مصر الفسطاط . وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضا في اتجاه الشمال اثر ظهور « حي العسكر » على أيدي العباسيين في القرن الثامن ، وحي القطائع في القرن التاسع بجهود الفاطميين . وفي ٩٦٩م تأسست بأمر من قبل أول حاكم فاطمي « المعز » نواة القاهرة الحديثة ، الى الشمال أيضا ، وتوسعت وتحصنت على يد صلاح الدين الايوبي الذي شيد القلعة في ١١٧٩ .

وقد اطلق العرب على هذه المدينة الجديدة اسم مصر القاهرة ، على اسم الكوكب المريخ (القاهر) الذي كان في حالة اقتران موائمة في وقت بناء الاسوار . وذلك هو اول ظهور لاسم القاهرة . غير ان الاقباط ، ومعهم الغربيون ، حافظوا على تسمية كل هذه المدن المتقاربة اسم بابلون .

غير ان القاهرة ، والقاهرة القديمة اللتين كانتا متلامستين تم فصلهما بشكل صريح في ١١٦٨ عندما قام آخر خليفة فاطمي ، وهو العاضد ، بحرق الحي المتوسط ، أي الفسطاط ، الذي تجاوز أسواره ، وأصبح من العسير الدفاع عنه ، معرضا للسقوط بسهولة كبيرة في أيدي الغزاة . ولم يحدث أن أعيد بناء الفسطاط ، بيد أنه يمكن التعرف على موقعه بمساحة كبيرة من الانقاض التي كانت لا تزال ، في منتصف القرن العشرين ، تفصل القاهرة الحديثة عن القاهرة القديمة .

منذ ذلك الحين فتدت القاهرة القديمة من أهميتها لحساب المدينة الفاطمية الجديدة ، التي غدت مركز الحياة الاقتصادية والسياسية . غير أن الحجاج الأجانب لم يترددوا في زيارة بابلون الرومانية لاهمية الكنائس والتي تحويها ، ولأنها كانت ، كما هي الحال اليوم ، مأهولة حصرا تقريبا بالمسيحيين واليهود .

هذا وان أوائل اوصاف القاهرة القديمة تعود على وجه الدقة لرحالة يهودي هو بنيامين الطليطي . وهو رحالة شهير من اقليم نافار في شمالي اسبانيا ، ارتاد بين عام ١١٦٥ و ١١٧٣ كل البلاد المتمدنة في عصره ، وكتب باللغة العبرية « المسالك » الذي ترجم ونشر عدة مرات . ولكنه لما كان مهتما ، حصرا تقريبا ، بوضع أبناء ملته في العالم ، فإنه لم يترك لنا أشياء تستحق الذكر عن القاهرة العربية ، التي دعاها « زوان Zoan » ، بل تكلم ، عن القاهرة القديمة التي كانها باسم عبري هو « مصرائيم » ، ويقول « ان مصرائيم (٥) مدينة كبيرة واقعة على ضفة النيل ، وهو نهر فيزون (٦) ،

وعدد اليهود فيها سبعة آلاف (٧) ولهم كنيسان كبيران ، أحدهما يخص أبناء بلاد اسرائيل (٨) ، والاخر يخص اهل بابلون ويدعى كنيس الشاميين (٩) ، والثاني كنيس العراقيين (١٠) وعلى رأسهم نيتانل Nethenel وهو أمير الامراء ورئيس السانهدرين Sanhédrin وكل الطوائف المصرية . فهو يعين الحاخامين والموظفين (١١) في عداد حاشية السلطان الكبير ، الذي يقع قصره في مدينة العرب الملكية ، أي زوان المدينة (١٢) . اما رعايا السلطان فيطلق عليهم اسم العلويين (١٣) ، الذين نبذوا سلطة أمير المؤمنين المقيم في بغداد . وهذان الفريقان في حالة عداء دائم ، لان الاول أسس في بلاد « زوان » عرشا منافسا لعرش بغداد (١٤) .

ويخرج الملك مرتين في العام : بمناسبة العيد الكبير (١٥) ، وعلى اثر فيضان النيل . ويحيط بمدينة زوان أسوار ولكن دون مصرائيم التي يحدها النيل من أحد جوانبها . وهي مدينة كبيرة ذات أسواق وفنادق بأعداد كبيرة ، وسكانها من اليهود اغنياء جدا .

ولا ينزل المطر في مصر ابدا ، كما ان الثلج والجليد غير معروفين ، والمناخ شديد الحرارة . ويزيد ماء النيل مرة في العام خلال شهر أيلول ، وعندئذ يغطي كل البلاد بمدة خمسة عشر يوما ، وبركود الماء فوق الاراضي خلال شهري أيلول وتشرين الاول فانه يعمل على اخصابها . وهناك عمود من المرمر علوه اثنا عشر ذراعا ، مقام فوق الماء بحذق شديد على حافة جزيرة نيلية ، يدل السكان على الارتفاع الذي بلغه الفيضان (١٦) . وعندما يغمر الماء العمود المذكور ، يصبح من المعلوم ان المياه أصبحت تغطي كل البلاد على مسافة خمسة عشر يوما ، أي على عرضها (١٧) أما اذا لم يبلغ الماء منتصف العمود ، فمعنى ذلك أنه لا يغطي سوى نصف البلاد . وهناك مأمور يقوم في كل يوم بقياس ارتفاع الفيضان على العمود ويذيع الخبر في كل بلاد زوان وفي مدينة مصرائيم .

وهنا تضيف ترجمة برجرون النص التالي : « ان كل الذين يملكون حقولا في هذه البلاد يحفرون خنادق كبيرة تظل مليئة بالاسماك ، بعد أن ينحسر ماء النيل ، يتغذى عليها السكان ، او يملحونها لبيعها من التجار الذين يحملونها لامكنة أخرى . وتكون أسماك هذا النهر على درجة كبيرة من السمنة بحيث يصنعون منها زيتا ضروريا لايقاد المصاييح . وكل من يأكل من هذه الاسماك او يشرب من ماء النيل لا يشعر ابدا بألم ، مهما أفرط في تناولهما ، لان هذه المياه لا تستخدم فقط للشرب بل وايضا في الطب للحصول على بدانة مفرطة جدا (١٨) .

« وتبتعد مصرائيم الجديدة بمسافة فرسخين (١٩) عن مصرائيم القديمة التي لم تعد اكثر من أرض قفراء ، غير أنه لا تزال ماثلة عدة بقايا من الاسوار القديمة ، وكذلك

من البيوت مع الكثير من الاوابد . والانبار التي بناها يوسف والتي لا تزال قائمة (٢٠) وفي خارج اسوار المدينة يقع كنيس يحمل اسم نبينا الطوباوي موسى (عليه السلام) ، والذي لا يزال يتعهد خدمته الى اليوم احد كهول تلامذة الحكمة ، الذي يقوم بدور كاهن ، ويدعى آلزيخ أبونستر ، ومعناه الاب الحارس القديم ، ويبلغ قطر هذه المدينة المتهدمة ثلاثة أميال ، وهي على ثمانية فراسخ من منطقة غوسن Gossen .

بيد أن الاهتمام بما تحويه مصر انتعش طبعاً في أعقاب أوائل التدخلات الفرنجية في البلاد . فعندما التمس الوزير «شاور» ، والذي كان يحكم بالفعل نائباً عن الخليفة، في القاهرة ، التحالف مع آموري الاول Amaury ، ملك بيت المقدس ضد الاتراك الذين اجتاحتوا مصر ، أرسل الملك هذا سفارة جرى لها استقبال في القاهرة ، وتقدمها الوزير بنفسه لتحظى باستقبال الخليفة الفاطمي (٢١) .

غير أن المقابلة الأكثر غرابة هي التي يرويها غليوم الصوري في كتابه (٢٢) ، ولما كان غير شاهد عليها فهو ينقل عن روايات سفراء فرنجة مثل هوغ من قيصرية ، والهيكلي جوفروا فولشر ، اللذين تكلمتا عن عجائب قصور الخلفاء ، التي كانت عبارة عن أسوار محصنة ، يحرسها أحباش ، وساحات فسيحة مبلطة بالمرمر المتعدد الألوان . وحدائق فتانة ، ونافورات متدفقة ، وأحواض ظليلة ، وحدائق حيوانات غريبة ، وقاعات مفروشة بزرابي من حرير موشاة بالذهب والياقوت والزمرد » .

هذا كما يقدم غليوم الصوري صورة شاعرية أكثر منها ، موثقة ودقيقة، منقولة، دوماً ، عن انطباعات قادة صليبيين، وهذا عندما قامت مفرزة أفرنجية باحتلال القاهرة بقيادة مشتركة تتألف من هوغ ديبلان H. de Ibelin والامير الكامل ، ابن شاور ، في حين كانت القوات التركية الغازية ، التي كان بين صفوفها الشاب صلاح الدين الأيوبي ، تعسكر في الجيزة ، على الضفة الغربية للنيل .

جاءك دوفيتري (١٢١٨ م) J. de VITRY

وقد قام جاك دوفيتري ، بدوره ، وهو مطران عكا أيام الصليبيين ، وهو الذي شهد حصار دمياط مع جيش الامير الفرنجي جان دوبرين J. de Brienne بتدوين هذه المعلومات الهزيلة ، نوعاً ما ، في المجلد الثالث من كتابه « التاريخ المشرقي » (٢٣) .

« على مسافة ثلاثة أيام من دمياط تقع مدينة كبيرة على حافة النيل تدعى بابلون الجديدة . ويجب أن ننوه أنه كانت في الماضي مدينة نبيلة وقوية جداً تدعى

القاهرة ، ولا يزال فيها المقر الملكي وقصور الامراء . وتقع على مسافة ثلث ميل من تلك المدينة . وبناء على أوامر السلطان أحيطت هذه المدينة وبابيلون الجديدة بسور واحد (٢٤) وبذلك تشكلت مدينة واحدة . وهنا يسكن مسلمون ويهود ونصارى ويتبع كل من هذه الاقوام شريعته الخاصة (٢٥) وتوجد حول هذه المدينة مزارع شجرية بهيجة والعديد من البساتين .

وحوالي العام ١٣٠٠ اعتزل الامير الارمني هايتون في دير بواتيه ، في فرنسا ، وأملى كتابه « تاريخ الشرق أو تاريخ بلاد التتر » (٢٦) ، ويخصص فصلا من هذا الكتاب لحالة ووضع المملكة المصرية ، ولكن لا يذكر شيئا يثير الاهتمام عن القاهرة : « ان أكبر مدينة في المملكة المصرية تدعى القاهرة ، وهي كبيرة جدا وبالغة الثراء . وعلى مقربة من هذه المدينة تقع مدينة أخرى ، موعلة في القدم تدعى مصر . وتقع هاتان المدينتان على حافة نهر يروي مصر يسمى النيل والذي يدعى في الكتاب المقدس جيئون Géon وهذا النهر هو أكثر نهر في الدنيا فائدة ، فهو يروي كل الاراضي حيثما يمر ، ويجعلها خصيبة ونضرة . وهذا النهر شديد العمق ، وقادر على أن يحمل كل أنواع السفن . وتكثر فيه كل أنواع الاسماك ، وهو جزيل الفوائد لولا انه تعيش فيه حيوانات تشبه التنين dragon تفترس الناس والخيول وكل الحيوانات الاخرى ، عندما تقع في متناولها ، وحتى على الشط . وتدعى هذه الحيوانات عادة التمساح Coquillaires ويفيض هذا النهر مرة في العام ، وتبدأ زيادته في منتصف اب ، ثم يأخذ بالتناقص ، وعندها يعمد الناس الى دفع مياهه نحو قنوات وسواق مقامة لهذا الغرض في الحقول ، كي تروى وتدمل (٢٧) . ويمكث الماء فوق الارض نحو من اربعين يوما ، ثم تبدأ الارض بالجفاف ، ويلقى بعد ذلك البذار في هذه الارض (٢٨) وينمو بشكل مذهش يفضل ارتوائها بهذه المياه ، ذلك لانه لاتسقط الامطار ابدا في هذا البلد المذكور ، فلا نجد اختلافا ابدا بين الشتاء والصيف .

وقد وضع الاهالي عمودا من الرخام في وسط النهر وامام مدينة مصر ، وقد صنعوا فوق هذا العمود بعض الاشارات : وعندما يكون النهر في فيضانه ، ينظرون الى هذه العلامات ، وعندما يصعد الماء حتى اعلا هذه العلامات ، فانهم يستبشرون بمحصول طيب ، وعندما لا يكون هناك ، خلاف ذلك ، فيضان قوي ، فهم يستخلصون عكس ذلك ، ويحددون اسعار البضائع استنادا الى هذه التوقعات وماء هذا النهر صحي جدا من اجل الشرب .

وتحوي مملكة مصر مينائين هما الاسكندرية ودمياط . .

« ولا يوجد في كل مصر مدينة ولا قلعة ولا قصر مزود بتحسينات او محاط بأسوار ، باستثناء مدينة الاسكندرية وقصر القاهرة . . وذلك مكان سكن السلطان » .

الاخ يعقوب الفيروني (١٣٣٥) Frère J. de Vérone

وهو حاج يدعو نفسه الاخ يعقوب الفيروني ، وربما كان هو الاخ الذي كان رئيس الدير الاوغسطيني المنذور للقديسة أوفيميا ، في فيرونا في ١٣٢٩ والذي قام بزيارة الاراضي المقدسة في سر الخامسة والعشرين . ولما غادر فيرونا في ١٧ ايار بصحبة عدد قليل من الاصحاب الذين أغفل ذكر اسمائهم ، ركب البحر في ٢٩ من الشهر المذكور من البندقية ، وبعد توقف في كريت وفي قبرص نزل في حيفا ، ومنها توجه الى بيت المقدس ، وبعده قصد سيناء مرورا بغزة . وعلى اثر عودته من زيارة دير القديسة كاترينا اجتاز البحر الاحمر ليلبغ القاهرة بالطريق الصحراوي في ٣٠ ايلول ١٣٣٥ . ولكن لم يمكث فيها اكثر من يومين لانه يروى لنا أن هناك حملة صليبية وشيكة عكرت مزاج السكان ضد الاجانب . فانكفا يعقوب (جاك) الفيروني على عجل ، وتحاشى الاسكندرية ، ليبحر من دمياط قاصدا يافا وفلسطين . وقال انه رأى في دمياط ، وبأمر من السلطان حجارة ضخمة ترمى في الميناء لجعله غير صالح لنزول الصليبيين . وشاهد الامر ذاته يحدث في حيفا وصور وعكا وهي الامكنة التي سافر اليها قبل ان يركب متن البحر قاصدا ايطاليا من بيروت .

ومما لفت نظر هذا الحاج ، على الخصوص ، في القاهرة هي رؤية فرق الممالك العسكرية ، وازدهار التجارة بشكل مذهل ، واليكم فقرات وصفه والتي نترجمها من النص اللاتيني الذي نشره رينهولد رويخرنشيت (٢٩) :

« بعد أن مضيت ستة ايام في اجتياز الصحراء ، وصلت في اليوم السابع الى مدينة القاهرة الجبارة الواقعة على النيل ، وهو نهر كبير ومدهش والذي هو أحد انهار الجنة الاربعة . ويدعى نهر جيون في سفر التكوين ، ولكن المسلمين يطلقون عليه في لسانهم اسم كاليسمو (٢٠) . وفي آخر يوم من ايلول ، وهو عيد القديس جيروم ، وصلت الى القاهرة ، المدينة التي تحوي على الكثير من العجائب التي تستحق الذكر ، لانها زعيمة كل مصر وفلسطين والارض المقدسة ، وكل بلاد الاشور حتى ارمينية . حتى أن ملك ارمينية ، وهو نصراني ، يدفع للقاهرة في كل السنين جزية تبلغ مئتي الف فلورين ومائة الف حذوة حديد لبيطرة الخيول . وللسلطان مسكنه فيها ، والذي يقع في المدينة ، وهو قصر رائع منيع ، مع اسوار وابراج ، وعمارات ضخمة . وفي هذا القصر حرس عديد مؤلف من مسلمين ، وأتراك ، وآخرين ، ومن نصارى (مرتدين) ، وكذلك العديد من الرقيق النصارى الوافدين من سائر انحاء النصرانية وقد فرحوا كثيرا برؤيتي . وهم يقيمون في قصر السلطان الذي يوجد فيه الطعام والكساء . هم عمال يبنون له صروحه .

وقد رأيت في القاهرة ، أمام باب القصر ، جند السلطان ، حيث يجتمعون هناك في كل صباح جيشا لجبا من ٢٠٠٠٠ فارس حسب تقدير تجارنا النصارى ، مسلحين بالقسي ، يمتطون خيولا صغيرة الحجم تماثل المهور أو أفراس الامراء الصفار . وكانت وقايتهم رديئة ، فليس على رؤوسهم سوى خوذة صغيرة من حديد ولا يكتسي بالدروع سوى عدد صغير منهم ، في حين كانت دروع الآخرين من الجلد ، كما لم يكن أي واحد منهم مزودا بما يقي ذراعه الذي يمسك بالقوس ، ولا بما يحمي افخاذهم وسيقانهم .

ولهم ركابات قصيرة ، وعندما يرمون بأقواسهم ، يقفون على ركبهم كي يطلقوا سهامهم . ورأيت خيل السلطان مغطاة بسروج مطرزة بالذهب والحرير مما يؤلف مشهدا بديعا ، طبعا ، ولكنها ذات حجوم صغيرة .

هذا كما رأيت في مدينة القاهرة هذه ، خمسة فيلة قرب قصر السلطان ، وهي حيوانات ذات قوام مدهش ، وللواحد منها زوج من الانياب الطويلة ، يبلغ طولها ذراعين تقريبا ، وأذان طويلة جدا . ويبلغ علو جسمها الضخم ثمانية اقدام ، مع سيقان ضخمة جدا ولها في أعلى الفم خرطوم طويل ، بحدود ذراعين ، وتضرب به بقوة .

وقد بلغ مسامي من نصارى يسكنون البلاد انه في القاهرة اكثر من ٢٠٠٠٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح . وتقع المدينة على ضفة النيل الذي يدعى كاليسمو . وتمتد طولا على اكثر من خمسة أميال بعرض يتجاوز المليون في سهل رملي . وتحوي العديد من المنازل العالية ، مشيدة باللبن مبيضة بالكلس من الخارج (٢١) ، وتحوي مساجد جميلة يؤدي المسلمون فيها صلواتهم .

ويوجد في مدينة القاهرة ذاتها وفي بابلون قرافات كبيرة حيث تقع اضرحة المسلمين ، وحيث شيدت قبور بديعة من الرخام ومن الحجر السماقي ومن حجر الهيصم ومن حجارة ثمينة أخرى ، مبنية ومذهبة بشكل رائع . ولم يسبق لي أن رأيت مثيلا لها في كل بلاد النصرانية ، وتوجه جميعا نحو الجنوب ، مثلما يوجه النصارى كنائسهم نحو الشرق .

وعلى مقربة من القاهرة ، على مسافة ميل واحد وبمحاذاة النيل والخليج ، تقع مدينة بابلون الكبيرة والمدهشة . وتكاد تكون ملاصقة للقاهرة ، ويخضع سكانها ، شأن سكان القاهرة ، للسلطان الذي يسكن في هذه المدينة المذكورة مع قواته وضباطه الذين يحملون لقب « الامراء » . والله يعلم ان هناك الكثير مما يمكن قوله عن هاتين

المدينتين ، اللتين تقعان في موقع ممتاز على نهر جيئون Géon أو النيل ، الذي هو احد انهار الجنة الاربعة . والهواء فيها عذب وخال من اي شكل من أشكال الوخامة ، والسكان أغنياء جدا بفضل تجارة الهند لان السفن تجلب عن طريق البحر الاحمر التوابل بمقادير لا تحصى ، وحجارة كريمة ، من مسافة تبلغ اربعة ايام عن القاهرة . وعندئذ تنقل قوافل الجمال التي لا يحصيها العد هذه البضائع حتى بابلون والقاهرة ، وكذلك حتى الاسكندرية ، والتي هي بدورها مدينة هامة وكبيرة ، على البحر المتوسط ، واقعة بين فلسطين وسوريا شرقا ، وبين ممالك بلاد البربر Barbarie والمغرب وتونس من الغرب . وعن طريق البحر المتوسط الذي يحاذيها من الشمال تجلب اليها السفن من سائر بلاد العالم كل ما يمكن او يكون نافعا للانسان وعلى مسافة مائتي ميل الى الجنوب منها تقع القاهرة التي يهبط منها فرع من النيل حتى الاسكندرية مما يسمح بنقل كل الاشياء من بلد لآخر ، وهكذا تكون القاهرة وبابلون مزودتين بكل شيء ..

وفي القاهرة وبابلون العديد من النصارى ، يدعون نصارى الزنار لانهم يتمنطقون بالزنار ، على خلاف المسلمين الذين لا يضعونه على خصورهم . مثلما يضع النصارى على رؤوسهم فعلا ، قبعات سوداء ، في حين تكون بيضاء اللون لدى المسلمين . وقد سمعت من يقول ان عدد النصارى كان ٣٠٠٠٠ في كل مصر (٢٢) ، وان كل واحد يدفع للسلطان جزية سنوية تبلغ دينارا ذهبيا ، مما يعادل فلورين ونصف . وفي مصر عدة كنائس وعدة اديرة للرهبان الروم والارمن . ورايت في القاهرة عدة كنائس ، وقد وددت البقاء في مصر لبضعة ايام لولا الاشاعات عن الحرب - اذ انتشرت بين العوام اشاعة بأن حملة صليبية وشيكة الوقوع - مما جعل نصارى ايطاليا من الناطقين باللاتينية ، مشبهين على أنهم جواسيس . وقد انتابني الهلع فلم ابق بالقاهرة اكثر من يومين . وبعون الله والارقاء النصارى الذين كانوا هنا فقد استطعت العثور على مركب من النوع الذي يسمونه « الجرمة » الذي اوصلني الى دمياط . وكان علي ترك الاسكندرية على يسار والعزوف عن زيارتها ، للسبب الذي ذكرت .



ولنترك جانبا ، الرحلة المزعومة التي كتبها الفارس الانكليزي - النورماندي جان ماندفيل في ١٣٥٦ والتي لم تكن سوى تركيم لروايات اختلافية وملامح اسطورية من كل الجهات ، ولكن ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، اخذت روايات الرحالة الى القاهرة تقدم فائدة اكثر . ذلك هو العصر الذي اخذت فيه العلاقات الدبلوماسية تأخذ استمرارية اكثر مما ساعد على رحلات افراد عاديين . فالسفن

الجنوية والبندقية التي حملت في القرون الفاتنة الجيوش الى الشرق ، أخذت تنقل اليه الان التجار وشحنات السلع . وراح السفراء والقناصل يتجهون نحو الدول الاسلامية لاقامة علاقات سلمية وتمتينها . واصبحت سبل الحج الى الاماكن المقدسة اكثر سهولة واكثر عددا . وقصد رجال الدين من كل الامم مدينة القدس وسيناء مرورا بالقاهرة : من فرنسيين ، وفلمنك ، وانكليز ، والمان ، واسبان ، وطلين ، وروس . . فلم يعد كافيا تكرار معلومات مبتسرة وغامضة عن عاصمة السلطان متوفرة لدى مؤرخي الحروب الصليبية ، بل كتب الكثير من الرحالة رواية شخصية عن رحلهم ، ورووا لنا ما راوه .

وقد جلب لنا عام ١٣٨٤ ثلاث روايات لثلاثة نبلاء من فلورنسة قاموا ، سوية ، برحلة الى الشرق في ذلك العام وهم : ليوناردو فريسكوبا لدى ، سيمون سيفولى ، وغوكشي دي ديتو ، يرافقههم فلورنسيون اخرون هم ساني دل رنكو ، انطونيو دي ، باولو ، والاخوان ماي واندريا رينوكشيني . وقد مات الاخير خلال الرحلة في دمشق .

وكان هؤلاء قد غادروا فلورنسة في العاشر من اب ١٣٨٤ كي يبحروا من البندقية بتاريخ ٤ ايلول على السفينة بولا Pola التي يقودها القبطان لونزو موروسيني الذي كان ينقل شحنة من الاقمشة اللومباردية وصفائح الفضة والزيت والزعفران ، وبلغوا الاسكندرية في ٢٧ ايلول حيث استقبلهم القناصل الاوروبيون وقصدوا القاهرة التي امضوا فيها ثمانية ايام من ١١ الى ١٩ تشرين الاول ، قبل ان يقصدوا سيناء التي عبروها الى فلسطين وسورية ، وعادوا من بيروت بحرا في شهر كانون الاول ١٣٨٤ .

وقد أصبح اولهم فيما بعد ، وهو ليوناردو ، ابن نيكولو فريسكو بالدي ، سفيرا لدى البابا بونيفاس التاسع في ١٣٩٨ ، واليكم وصفا للقاهرة مترجما عن النص الايطالي الذي نشره غوغيلمو مانزي (٢٢) .

وصلنا الى القاهرة وبابليون في ١١ تشرين الاول ، وللتين هما الشيء نفسه . وهنا قادنا الترجمان الذي قصدناه في الاسكندرية ، الى الترجمان الاكبر ، وهو رئيس سائر تراجمة السلطان وقد انزلنا هذا الموظف الكبير في منزل مع امتعتنا ، قصدناه في قناة تتصل بالنيل . ويقع هذا المسكن على مسافة تقارب ثلاثمائة ميل في داخل البلاد .

وخلال المشوار بين الاسكندرية والقاهرة صادفنا الكثير من مراكب المسلمين موسوقة بالبضائع وتنقل كلها عددا كبيرا من نساء الشعب ويعملن فعلا بالكثير من

صنوف التجارة وكن يسافرن الى الاسكندرية والى جزيرة الروضة (٢٤) وبقصد البيع والشراء .

ويقيم السلطان في مدينة القاهرة وبابلون . ويقع قصره في المكان ذاته الذي كان يقيم فيه فرعون مصر ، حيث جرى ارضاع موسى . وفي يوم وصولنا الى القاهرة كان السلطان عائدا من القنص بعد غياب استغرق بضعة ايام . وكان هناك خمسة آلاف خيمة ، ولم نر اطلاقا مثل ذلك الفنى الباذخ . وقد كان هذا السلطان نصرانيا من اليونان (٢٥) ، اشتراه أحد الامراء طفلا صغيرا اي أنه أصبح مملوك قائد حربي . وعندما تقدم في العمر احتفظ به الامير ضمن حاشيته ومنحه أفراسا وزادت مكانة هذا الشاب الى أن غدا حاكم القاهرة .

ويجب أن نعرف أن في القاهرة اثني عشر اميرا ، منهما اثنان رئيسيان . وتقسم المدينة الى اثني عشر حيا كما تقسم فلورنسة الى اربعة احياء ، وكل امير يحكم حيه ويقود عددا كبيرا من المحاربين ..

وتشكل بابلون مع القاهرة مدينة كبيرة جدا تمتد اكثر من ثمانية عشر ميلا طولاً وثمانية اميال عرضاً . ويحد النيل أحد أحيائها حيث يقوم ميناء جيد ، كان يرسو آنذاك عدد كبير من السفن مما لم نشهد له مثيلا في موانئ جنوا أو البندقية وأنكونة (٢٦) مجتمعة سوية . هذا عن السفن من ذوات الجسرين ، والتي لا تؤلف ثلث عدد السفن الراسية هنا والتي تكون كلها ذات حمولة تعادل ، أربعمائة بالة أو أكثر . وفي عالية القاهرة (٢٧) ، وعلى مسافة ثلاثة اميال بمحاذاة الضفة ، يقع المكان الذي ولد فيه موسى (عليه السلام) وحيث القى في النهر في مهد مجلفط بالقار . وفي ساحة السلطان ، وعلى مقربة من القصر الذي يسكن فيه ، ينتشر العديد من دكاكين باعة المجوهرات الذين يتصرفون بكميات من الحجارة الثمينة ، والزمرد ، والياقوت والياقوت الاحمر Balais (٢٨) والفروز ، والالاء وأنواع أخرى من الحجارة الكريمة من سائر الاصناف . وقد اشترى رفيقنا اندريا دي ميسر فرانسيسكو لزوجته بضع لالء حملناها معنا ، فضلا عن اشياء أخرى استودعنا اياها عندما حضرته الوفاة بدمشق .

وعلى مسافة أربعة عشر ميلا من القاهرة ، فيما وراء النهر ، من جانب بابلون يقوم اثنا عشر من الانبار (غنابر القمح) ، من تلك التي امر يوسف بينائها في عهد فرعون في ايام المجاعة . ولا تزال قائمة : وهي ابنية مربعة الزوايا مقصوفة على هيئة الالماسات وعرض كل منها عند القاعدة يعادل ارتفاعه ، ويبلغ محيطها نصف ميل وتستتر الرمال قواعدها ، ولكن كان يوجد اكثر بكثير من هذه الانبار (٢٩) .

وقد سبق أن قلت ان القاهرة مدينة كبيرة للغاية ، وفيها يوجد الكثير من النسوة اللواتي يمارسن التجارة بنشاط ، فيقصدن الاسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وسائر أنحاء مصر ، تماما مثلما يفعل تاجر كبير . أما في المدينة فيمتطين رواحل بدبعة قادرة على حمل حمولات خيول قوية . وهذه الحيوانات معروضة للاجار على الساحات العامة وعلى الطرق ، وكل واحد مع سائقه ، ولا يعمل هؤلاء شيئا أكثر من تأجير رواحلهم للنقلات . وهم بالفعل عاجزون عن ممارسة أنة مهنة أخرى . وكان يوجد في القاهرة عند وجودنا فيها ما لا يقل عن ستين الفا من هؤلاء الحمالين .

وعملتهم من الذهب او من سبائك الفضة غير المسكوكة . ويدعى الذهب بيزان besan ، وتبلغ قيمة السبيكة دينارا وربع من العملة المسكوكة . ولكن دنائير البندقية ducats من الذهب المسكوك دارجة هنا (٤٠) . وتدعى العملة الفضية الدرهم وتعادل بندقية كبيرة . وليس هناك سعر لاية عملة فضية مسكوكة أخرى سوى تلك البندقيات الكبيرة . ولديهم عملة نحاسية غير مسكوكة يدعونها فلوس وكان كل تسعين فلسا يعادل في القاهرة درهما واحدا . ولكن يعادل الدرهم في امكنة أخرى من البلاد الاسلامية ثلاثين درهما ، وتارة اربعين ، وأحيانا أقل من ذلك حسب الامكنة . وكل بضائعهم ، تباع بالوزن ، حتى البطيخ الاحمر .

ويوجد في القاهرة حوالي ٢٥٠٠٠ من النصارى المرتدين ، ولكن القليل منهم من قوما ، ومعظمهم ينتسب الى أمم أخرى . ونصادف عددا كبيرا جدا من الابل المبرذعة ، جميلة وقوية ، وتستعمل حصرا لنقل مياه النيل الذي يجري ببعه في المدينة . ويقدر عدد الابل هذه بحوالي ١٣٠٠٠ ، ويقال ان في القاهرة ٦٠٠٠ من السقائين . أما النصارى فمن عدة اقوام ، اللاتين ، وهم فلائل ، والروم والنوبيون ، والكرج ، والاحباش ، والارمن ، ونصارى الزنار ، الذين يعمدون بالنار على الرأس وعلى الصدغ وآخرون على الصدغ والرأس ، او أحيانا على الرأس فقط ، وذلك حسب مذهبهم ...

وتكون كسوة النساء عموما من قماش حسن النسج ، وثيابهم الداخلية من قماش شيت Toile ، او من كتان الاسكندرية الناعم لدى الأكثر غنى ، ويلبس بعضهم ثيابا قصيرة حتى الركبة ، ولكن في هذه الحالة يضعن فوق ذلك نوعا من معطف (مانطو) على الطريقة الرومانية . وهن محجبات ومخفيات بحيث لا تظهر سوى عيونهن ، وأكثرهن أناقة يضعن أمام أعينهن قماشا رقيقا أسود اللون (برقع) يحول دون رؤيتهن ، مع أنهن يرين الناس تماما . ويحتذين جزمات بيضاء ويفطين سيقانهن بجوارب وبواقيات للساق تهبط حتى الكعب ، وتكون نهاياتها مطرزة - حسب حال السيدة - بالحريز ، أو بالذهب ، أو بالفضة ، أو بالحجارة الكريمة ، أو بلألىء مطرزة فوق القماش .

ويكتسي الرجال بثياب مسدلة ، ودائما فوق سراويل أو جزمات ، بل يكتفون بأخذية من طراز البلاد على شكل خف معلق ، وعلى رأسهم قبة من قماش أبيض أو قماش ناعم . وثيابهم البيضاء من حرير ، أو من قطن أو من كتان فاتق النعومة . ولا يميل أهل مصر كثيرا للحروب ولا يحملون أي سلاح كان ، وقد يحدث أن يتشاجروا لدرجة تجعل المشاهد يتصور أنهم سيقطعون بعضهم أربا أربا ، ولكن ما أن يصيح أحدهم قائلا : « استغفر الله » حتى تسود السكينة عليهم .

أما أمراء القاهرة فيمكن تسميتهم القادة العسكريين الاثني عشر : فكل منهم يحكم حيه وله فرقة وميليشيا ، ولا يهتم بالحي الاخر أو بالسكان المجاورين . ويتألف جنودهم من أتراك وعرب وتتر مع بعض مسلمي سورية وبعض المرتدين ، من نصارى ويهود من مختلف الامم » .

ويقوم فريسكو بالدي بعدئذ بوصف الفيلة والزرافات التي رآها في القاهرة ثم يتابع كلامه :

وتكون مدينة القاهرة ، العاصمة الامبراطورية ، غنية بالسلع من كل نوع ولاسيما بالسكر ، وبالتوابل ، وبالمأكولات من كل صنف ، وفيها ١٠٠٠٠٠ نسمة لا يملكون بيوتا ، وينامون ليلا في العراء ، كما أن هناك عددا كبيرا من الناس ينهمكون في أداء خدمات من كل نوع مقابل أجر قرابة درهم يوميا ، مما يعادل تقريبا أربعة قروش وربيع من عملتنا . وفي القاهرة هذه سكان يزيد عددهم على سكان اقليم توسكانيا كله ، وفيها شارع واحد أكثر سكانا ، من كل مدينة فلورنسة . ونصادف بالمدينة عددا كبيرا من الطهاة الذين يعملون ليلا ونهارا في الطبخ بالعراء ، في الشارع في قدور جميلة كبيرة من نحاس مطلي . ويجهزون أنواعا ممتازة من اللحوم . ولا يقوم أي حضري - مهما بلغ من الفنى بالطبخ في بيته ، وهذا هو الوضع الفعلي لكل المسلمين ، فيرسلون من يشتري لهم أقواتهم من « البازارات » وهو الاسم الذي يطلق على هذه المطابخ . وكثيرا ما يجلسون في الشارع على الارض لتناول طعامهم بعد ان ينشروا بساطا يضعون في وسطه طست الطعام ويتحلقون من حوله على الارض ، بعد طي سيقانهم على شكل متصالب ، أو على كعوبهم ..

ويدفع مسلمو البلاد بعض الضرائب النظامية لا يخضعون بعدها لأي رسم . بيد أن على اليهود والنصارى من كل طائفة أن يدفعوا ، فضلا عن المألوف ، دينارا عن كل رأس كل ثلاثة عشر شهرا قمريا . ويبدأ نظام التاريخ من محمد (عليه السلام) (٤١) ، ويلتزم الناس في كل عام بصيام شهر قمري ولكن هذا التوقيت لا يعود دوما للفترة نفسها ..

ومساجدهم بيضاء كليا من الداخل ، وفيها عدد كبير من المصابيح المتقدة ، ومناراتها عالية دون اجراس ، ومحاطة بشرفة ، يقوم مشائخهم في كل ساعة من النهار والليل ، بثلاث دورات حولها وهم يدعون للصلاة (٤٢) ..

وفي ١٨ من الشهر ذهبنا لزيارة الامكنة المقدسة وكنائس القاهرة وبابلون . وكانت اول كنيسة رايناها هي كنيسة القديس توما الرسول التي تخص نصارى الزنار ، وهي كنيسة جميلة جدا ومقدسة والثانية هي كنيسة القديسة بارب Barbe ، وهي بدورها ، جليلة وبديعة ، حيث راينا جسد القديسة وهي رفات مؤثرة جدا . وكانت الثالثة كنيسة القديسة مريم الدرج eescalier والعمود، وهي كنيسة مقدسة جدا ومزدانة ويسرد الالهون عنها عجائب كثيرة .. وفي هذه الكنيسة يتسلم نصارى البلاد ، مراتبهم من يد البطريرك ، وهو الرئيس الاعلى لكل نصارى هذه الاصقاع ، ويقصدها الناس حتى من اليونان . ونصارى الزنار هم الذين يخدمون بالقداس فيها . والكنيسة الرابعة هي كنيسة مريم الكهف حيث مكث العذراء مختفية فيها مدة سبعة اعوام خوفا من هيرود . وهذه الكنيسة هي اكثر الكنائس توقيرا في العالم . فقد شيدها القديسة هيلانة ، والدة الامبراطور قسطنطين ... وفي المكان الذي سكنت فيه سيدتنا نجد مصلى تحت الارض يهبط اليه بتسع درجات ، يماثل كهفا حجريا .. وقد كان محراب سيدتنا ، واليوم يقوم مذبح مكانه وطلبنا من حارس جبل صهيون في القداس اقامة قداس امامه ، وهو راهب فرنسي صغير Mineur ، وشريف من البندقية ، اسمه نيكولا (٤٣) وهو رجل يتمتع بشجاعة كبيرة وبحياة قدسية .. وقد جاء ليطلب السماح بتأسيس دير للاخوة الفرنسيين في وادي جوزافات Josaphat حيث يقع ضريح مريم العذراء ، ولكنه لم يغز بهذا الترخيص مطلقا . ويقوم نصارى الزنار ، من اهل بابلون ، بخدمة هذه الكنيسة وبين القاهرة وبابلون اللتين تبعدان عن بعضهما اكثر من رمية سهم ، تقع كنيسة القديس مارتن ، مطران الاسكندرية ، حيث يحتفظ بجثمانه ، او بالاحرى برفاته ، ملففة بكفن من حرير ، وقد احتضناه بأذرعنا . وقد دفنت في هذه الكنيسة ملكة ارمنية التي ماتت في الاسكندرية ، عندما كان زوجها اسير السلطان (٤٤) ويقوم النصارى الارمن على خدمة الكنيسة .

وقد اقمنا بضعة ايام في المدينة لتأدية عبادتنا ، ولزيارة طرائف المناطق المجاورة مثل انبار فرعون وبيت موسى (عليه السلام) وللتموية بقصد رحلتنا عبر الصحراء نحو ارض الميعاد . وكثيرا ما كان يزورنا الترجمان الاكبر بالبيت الذي تقطنه ويتناول الشراب معنا .. وكان فيه العديد من طير اليمام ، حتى في غرفتي ذاتها حيث كان لها فيه ثلاثة اعشاش ، وكانت هذه اليمامات المستانسة ذات حجم يعادل حمام بلادنا ،

وكانت كلها أهلية شأن طير الحمام لدينا . وللسلطان العديد من الموظفين ، ولما كان يود سماع الاخبار فقد كان يتسلم ، في كل نصف ساعة ، في القاهرة ، رسائل ترده من الاسكندرية بواسطة الحمام

« وفي البلاد عوز شديد لخشب البناء . وللوقود تستعمل أوراق النخيل ، اي السعف ، وقفف الجوب ، وكذلك روث الابل الممزوجة بالفبار وبفضلات أخرى . ويكون الخبز رديء الشواء ، ولكنه أبيض كالجليب ، لان لديهم قمحا رائعا ... » .

اما سيمون سيفولي، صاحب فريسكو بالدي، فقد دبج ، بدوره رواية ايطالية عن رحلته . وقد نشرت مع روايتي فريسكو بالدي ورواية غويكشي دي رينو بجهود كارلوكار غيولي(٤٥) وفيما يلي بعض فقرات منها :

« ... وتكون ثياب المسلمين دائما من القطن الشديد النعومة حتى ليتصور اليه انه من حرير . وهناك من تسعفهم امكاناتهم فيكتسبون بقماش من حرير أبيض . ويلبسون ثيابا طويلة وعريضة تغطي الظهر وتنسدل حتى الاقدام ، وذات اكمام طويلة جدا وعريضة جدا شبيهة بكتونات الرهبان . ويعتمرون فوق الراس بقلنسوة ذات قمة حادة ويلفون الراس والقلنسوة بقماش من كتان ناعم للغاية طوله خمسة وعشرون او ثلاثون ذراعا . كما يحملون ايضا قطعة أخرى من الكساء وهي نوع من وشاح يتدلى من الخلف ، يماثل الوشاح الذي يضعه الشماس عندما يساعد الكاهن في القداس الكبير ويحمل كلهم تقريبا ، وعموما فوق اليد ، او فوق الكتف ، منديلا مقلما من قطن مصبوغ .

ويلتزم المسلمون في كل السنوات بصوم يبدأ في أول شهر قمري من العام ، ويقع في شهر أيلول (كذا) ، والذي يدوم ثلاثين يوما . ويظلون طول النهار دون طعام أو شراب ، وثم في المساء ، عندما تظهر النجوم في المساء ، يأخذ كل واحد منهم بأكل اللحم وكل ما يروق له ، يأكلون طيلة الليل ... (٤٦) وفي نهاية الايام الثلاثين ، وعندما يرون الهلال الجديد ، ويحتفلون بعيد كبير جدا . ويجتمعون في أكبر ساحة في المدينة ، وعندها يأخذ بعضهم بقرع الطبول ، والنقر على الدفوف وآخرون ينشدون أيضا ، ويرقصون ويأكلون ويلعبون بالصنج ، في حين يرفع البعض أوزانا ضخمة بقوة أذرعتهم ، وتستمر هذه الافراح مدة ثمانية أيام وتمتد شطرا كبيرا من الليل . ويظل كل طهاة المدينة ، خلال شهر الصوم ، في دكاكينهم طيلة الليل منهمكين في بيع اللحم والأطعمة الأخرى لان المسلمين لا يطهون الطعام في منازلهم أبدا .

وفي خارج القاهرة او على مسافة عشرة اميال تقع انبار فرعون . . .

ولنتكلم الان عن جمال ونبل القاهرة ، وعن عظمتها وعن كثرة السكان الذين يسكنون فيها ، وعن عاداتهم وعن جلال السلطان :

يتجاوز طول القاهرة اثني عشر ميلا ، ومحيطها نحو ثلاثين ميلا . وهي ليست محاطة بسور ، بيد ان النيل يجري على طرفيها ، ويكون الطرف الثالث محفوفًا بخندق . وتلعب بيوت السكن العالية جدا دور الاسوار . وقد روى لي نصراني اسمه سيمون من كانديا (٤١) والذي كان وجوده هنا لعقد صفقات تجارية ، ان المدينة تحوي أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، يكون أكثر من خمسين ألف منهم دون بيت ولا يستترهم سقف يتظللون فيأه وينامون في الليل فوق دكات لان المطر لا يهطل أبدا في القاهرة ويكون الطقس فيها شديد الحرارة جدا (٤٧) . وهناك من ناحية أخرى أكثر من عشر آلاف رجل من العراة باستثناء فوطة حول خصرهم . وقد روى لي هذا التاجر نفسه أنه خلال طاعون ١٤٧٣ هلك بالقاهرة العديد من الناس او ١٠٥٠٠ شخص في ثلاثة أيام . وتصور الوضع في مثل هذه الحال ، حيث كان يموت فيها عشرة آلاف او اثنا عشر ألف او ستة عشرة ألف وأكثر ، تارة أكثر ، وتارة أقل ، الذين اهلكهم هذا الطاعون الذي استمر قرابة ثمانية أشهر .

وفي المدينة غزارة كبيرة في البضائع من كل الانواع ، ولا سيما التوابل من كل صنف ، تأتي في المحيط الى البحر الاحمر من قطري الهند (٤٨) لتفرغ في مرسى القديسة كاترينا (٤٩) الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا عند حضيض جبل سيناء . وهناك الكثير الوافر من السكر ، الابيض كالثلج ، والقاسي كالحجر ، وهو افضل سكر بالدنيا . وبعد ان تفرغ البضائع في الميناء المذكور ، تحمل على ظهور الابل على الطريق الصحراوي حتى القاهرة ، مما يؤلف رحلة تمتد على ثلاثة عشر يوما لا يرى خلالها اي بيت او سقف ، ولا يظهر سوى الجبل وسهل الرمل المغطى بالحجارة وبالحصباء .

« في مساء الاربعاء ١٩ منه وصباح الخميس ، خرجنا من القاهرة مع كل متاعنا ، وحميرنا وجمالنا ، لمتابعة رحلتنا نحو القديسة كاترينا » .

« وعلى مقربة من القاهرة ، وعلى مسافة ميلين ، على الطريق المباشر نحو دير القديسة كاترينا ، شاهدنا الكثير من الاشياء المدهشة ، وأولها نبع من ماء غزير . وهو

عين جميلة جدا ذات مياه رائقة وطيبة ، مقسومة بجدار حيث تشكل ساقيتين احدهما بجانب الاخرى . وقد شيد السلطان فوق النبع بناء جميلا وكبيرا على هادتهم هناك . وهنا يقع بستان السلطان وهو واسع جدا وغاية في الجمال ، مليء بالنخيل والاشجار المثمرة ، وفيه ينتج البلسان الذي لا ينمو في أي مكان آخر . ويعتني بالبستان وبحرسه عدد من الموظفين والمستخدمين يعينهم السلطان ، ويقومون بتسجيل محصول البلسان . ويحرص السلطان على ذلك ويتخذ التدابير كيلا يفقد شيء من المحصول . ويقال أن سيدنا المسيح هو الذي فجر هذا النبع بقدمه بناء على توسل امه (٥٠) عندما هربا من سورية الى مصر مجتازين صحراء بلاد ماء . وكانت سيدتنا عطشى فطلبت من وليدها أن تشرب ، وعندها ضرب المسيح الارض بقدمه وفي هذا النبع قامت سيدتنا مريم بفصل اقمشة وليدها ونشرتها لتجف فوق شجيرات البستان ، التي غدت بعدئذ تنتج البلسان الشافي ..» .

الحواشي:

وتتلمس وان كانت جميعها دون اسوار ولا تحصينات دفاعية ، الى ان قدمت جيوش المغاربة الفاطميين الى مدينة «الجيزة» الواقعة على ضفة النيل الغربية، في مواجهة تلك العواصم الاسلامية الثلاث التي تقع جميعها على الضفة الشرقية القديمة . وفي ١٦/٦/٩٦٩م استولى جوهر الصقلي على العواصم الثلاث . ورابطت القوات المغربية في الارض الخلاء الواسعة التي يشرف عليها جبل المقطم في الشرق ، ويحدها من الغرب قناة متفرعة من النيل تحمل اسم « الخليج المصري » كانت تصل بين العواصم المصرية الاسلامية وبين مدينة القلزم (السويس حاليا) على البحر الاحمر . وهذه القاهرة دعيت «قاهرة المعز لدين الله» .

مؤرخ الحروب الصليبية . ولد في سوريا حوالي ١١٣٠م ومات في ١١٨٦ وكان بطريرك صور وقد ترك حويلات عن الشرق اللاتيني في القرن ١٢م .

والتي سموها فعلا « بابلون الجديدة » لتمييزها بوجه الدقة عن بابل الاشوريين الشهيرة برج بابل .

(١) لقد جرى جمع هذه النصوص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كي تكون مساهمة في كتاب كانت « الجمعية الجغرافية الملكية » في مصر تزمع اصداره في ١٩٤١ بمناسبة العيد الالفي لتأسيس القاهرة . ولكن الظروف حالت للاسف دون نشر الكتاب المذكور ، الذي اخذ المسيو هنري مونييه ، والمسيو غاستون فييت ، من علماء الاثار المصرية ، على عاتقهما مبادرة الاشراف عليه .

(٢) من المعروف أنه كانت هناك عواصم اسلامية متعاقبة قبل القاهرة . ففي سنة ٦٤٤م دخل العرب الفاتحون مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي اقتحم بقواته « حصن بابليون » حيث كانت ترابط القوات البيزنطية . وعلى مقربة من هذا الحصن النبع الذي يقع حاليا في حي « مصر القديمة » أنشأ عمرو مدينة « الفسطاط » لتصبح أول عاصمة لمصر العربية . وفي سنة ٧٥٠م استولى العباسيون على مصر وأنشأوا عاصمة جديدة سموها « مدينة المسكر » . وكانت هذه العواصم الثلاث متقاربة ، تكاد حدودها تتداخل

مشرة ذراعا والذي يكون من المعتاد ان يرتفع الماء حتى سويته .

اي كل الدلتا . (١٧)

كانت السمنة من مظاهر الصحة الجيدة، وحتى عهد قريب منا كان يقال : « كرش الوجاحة » . (١٨)

الفرسخ ؟ كم . (١٩)

اي الاهرام . وكان يعتقد انها عتابر لتخزين الحبوب تحسبا للمجاعات الدورية . (٢٠)

يحلل التاريخ بالحكام الذين استنجدوا بالعدو للتثبيت بكراسيهم ، ليس امرؤ القيس من اوائلم عندما قصد قيصر بيزنطة للاستعانة به على مفتصبي كرسية في قلب الجزيرة العربية ، وبغض تاريخ الاندلس يمثل هذه التحالفات المشينة التي قادت لخروج العرب من شبه الجزيرة او صهرهم بمحاكم التفتيش . (٢١)

ترجم للفرنسية في القرن ١٣ تحت عنوان « كتاب فتح الارض المقدسة » او « تاريخ هرقل » . نشر دار بولاق . باريس ، لدى دار فيرمان ديدو ١٨٧٩ . وعمل غليوم السوري في فترة ١٠٩٥ - ١١٤٣ اعتمادا على مؤرخين سابقين ، ولكن للفترة ١١٤٣ حتى ١١٨٤ وهي سنة وفاته ، فقد كان عمله ذا اصاله . (٢٢)

نشره بونفراس . هانوفر ، سنة ١٦١١م . وهذا خطأ من جانب الكاتب . (٢٣)

هذه الشهادة مدعاة للفخر عن التسامح العربي بالموازنة مع مذابح القدس عند دخول الفرنجة وما كان يفعله متعصبوا الاسبان بالاندلس من تذيبح وتهجير ومحاكم تفتيش تقشعر لفظاعتها الابدان . (٢٤)

جری املاء هذا الكتاب بالفرنسية ، ولكنه ترجم الى اللاتينية في ١٣٠٧ ، واميدت ترجمته الى الفرنسية ، ونشره بيبير برجران في كتابه « رحلات تمت خاصة في الشرق » (٢٥)

(٥) لقد تمت ترجمة هذا النص عن الانكليزية بقلم الكنان ثاثان ادلر « الرحلة اليهودية » . لندن ١٩٣٠ ، ونقابله نحن مع ترجمة أقدم للحصول على بعض التفاصيل ، وهي ترجمة بيبير برجران . عنوانها « رحلة بنيامين الطليطي » في رحلات تمت في اسيا بشكل خاص خلال القرن ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، مع مقدمة بقلم بيبير برجران ذاته . لاهاي ١٧٨٥ .

(٦) احد انهار الجنة الارضية الاربعة ، كما جاء في سفر التكوين وهي : النيل والفرات وسيحون وجيحون .

(٧) يبدو هذا الرقم مبالغا فيه ، لان برجران يقول : ٢٠٠٠ نسمة لا غير .

(٨) اي يعقوب عليه السلام ونسله .

(٩) اي هيكال السوريين او الفلسطينيين .

(١٠) ويقول برجران ان الكنيس الثاني يدعى غيرهاكوم .

(١١) حسب ترجمة برجران : « ناثانال ، هو رئيس المجمع ، ويرأس كل جامعات مصر ، وهو الذي يعين الاساتذة وكذلك مديري املاك الكنس » .

(١٢) زوان اسم عبري لمدينة تانيس Tanis القديمة وتدعى اليوم صان الحجر في مصر السفلى .

(١٣) نسبة الى الامام علي ابن عم الرسول (صلم) وصهره ، والذين ينسبون للشيعة . اما برجران فيقول : يطلق على السكان اسم « موريديم » اي المتمردين . (٢٣)

(٢٤) يقول برجران : لقد اقام الاول بلاطة في قصر زوان الذي يستحقه اكثر بسبب موقع المكان ، اي قلعة صلاح الدين . (٢٤)

(١٥) اي عيد الفطر ..

(١٦) ذاك هو مقياس النيل nilomètre

في جزيرة الروضة . ويقول برجران : « لقد حرص القدامى على اقامة عمود ، في الجزيرة التي يشكلها النيل ، يزيد ارتفاعه عن النسي

- (٣٨) وتحت عنوان « التاريخ الشرقي » أو تاريخ
لترهابتون . نسيب ملك ارمينية والذي يضم
اولا : وصف موجز ولطيف لبضعة ممالك
وبلاد شرقية ، حسب الوضع الذي
(٣٩) كانت عليه حوالي العام ١٣٠٠ ، ثانيا :
(٤٠) رواية الكثير من الامور الهامة التي انتابت
شعوب هذه البلاد واممها وقد تمت كتابة
المجموع بيد نيكولا فالكون ، وترجم حسب
النص اللاتيني من قبل آندرية موللر
غريفنهايم .
- (٢٧) تسد بالطمي .
- (٢٨) كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن
الخطاب يصف مصر : « حتى اذا بنت سقاء
من قوته الندى وغداه من تحت الثرى وبعد
(٤٢) ان كانت الارض غبرة سوداء تصبح وبر جدة
خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء » .
- (٢٩) « حج الراهب الاوسطيني جاك دوفرونا »
نشر رينهولد رويخرنشيت في مجلة « الشرق
اللاتيني » عام ١٨٩٥ . وفرونا مدينة قرب
البندقية على نهر الاديج (٣٧٥٠٠٠ نسمة) .
- (٣٠) وهنا يخلط المؤلف بين النيل و « الخليج »
وهي ترعة تجتاز القاهرة .
- (٣١) وهو الجير في مصر والشيد في فلسطين .
- (٣٢) أي في القاهرة وحاليا اكثر من ٢ مليون .
- (٣٣) نشر كارلو مورد كشيبي . روما ١٩١٨ .
- ٢٤) Resette ؟ اورشيد .
- (٣٥) وهو برقون الذي حكم من ١٢٨٢ و ١٣٩٩م
وكان شركسيا ، اذ كانت تطلق عبارة بلاد
اليونان على كل الاقطار التي تدين
بالارثوذكسية .
- (٣٦) ميناء على الادرياتيكي ، عاصمة اقليم
مارش ١١٠٠٠٠ نسمة .
- (٣٧) أي باتجاه الصعيد ، أو باتجاه المنبع أو
amont بالفرنسية upstream
بالانكليزية .
- وجاء اسمه من اسم بلاد بلخشان ، قرب
سمرقند ، حيث كان يسخر هذا الحصف
من الياقوت .
- يقصد الاهرام .
- كان السلاطين من بعد برقون يسكنون دنانير
ذهبية . فقد أصدر السلطان فرج الدينار
الناصرى والمؤيد المؤيدي ، وبرسباي الدينار
الاشرفي . وتلك الدنانير طليعة القطع
الذهبية المصرية .
- ربما يريد ان يقول من هجرة الرسول
(٤١) (الترجم) .
- ويظهر هنا جهل فاضح لان الاذان خمس
مرات وليس اربع وعشرين مرة .
- ويذكر غوكشي دي دينو ان رجل الدين هذا
يدعى نيكولا داكورينو ، وانه كان بندقيا .
ولد في كاندي في كريت التي كانت من ممتلكات
البندقية ، وهو حارس القدس .
- وهي زوجة ليون السادس دو لوزينيان ،
(٤٤) اخر ملك في منطقة كليكيلا الارمنية ، وقد
اقتيدت مع زوجها بعد سقوط سيس عاصمة
مملكته في ايدي قوات السلطان في عام
١٣٧٥ .
- دار فيرنزة سنة ١٨٦٢ .
- عاصمة كريت واسمها الحالي هيراكليون على
(٤٦) الساحل الشمالي وسكانها ٧٨٠٠٠ نسمة
ليس من المستغرب ان ينفي الاجانب عن
القاهرة ظاهرة المطر لانهم لم يصدف كما
يبدو ان زابوها في الشتاء لان معدل مطرها
السنوي يعادل ٢٥ مم .
- أي الهند والهند الشرقية (اندونيسا) .
- ميناء الطور .
- وهنا مقاربة مع قصة انجاس ميناء زمزم
تحت قدمي اسماعيل عليه السلام على اثر
شدة الظما الذي اشتكى منه واهما هاجر
زوجة ابراهيم عليه السلام .